مقدمة

شعرية الفن الكنائي بين (البعد المعجمي والفضاء الدلالي المنفتح)

عنى علماء البلاغة بطرائق البيان وبلاغة الأداء اللغوي عناية واضحة فى تراثنا الأدبي والنقدي، ولم يألوا جهداً ولا نقاشاً فى بيان هذه الضوابط التى تحتم أدبية التعبير وبعده عن المباشرة فى تناول المعاني، وفى إطار هذا الاهتمام كثرت مؤلفاتهم وتعددت مشاربهم، مما أدى إلى اتفاقهم أحياناً، اختلافهم أحايين أخرى تجاه الظاهرة الواحدة .

ولقد عنى البلاغيون القدماء فى إطار درسهم فنون التعبير الأدبي، وبلاغة طرائقه بدرس (الكناية) بوصفها فنا من فنون التعبير، وعنايتهم بها تتفاوت بين ذكر المصطلح وتعريفه، والتذييل بالشواهد، " ولكنهم لم يستطيعوا الاتفاق، كما لم يستطيعوا منذ الإسلام حتى اليوم، رغم تألق

الفكر البياني فى فترات عدة، أن يصلوا إلى قواعد تضبط النحو الفكري للكناية بالنحو اللساني "[1]

ويلاحظ الباحث فى كثير من المؤلفات التى تناولت مبحث (الكناية) بالدرس والتحليل الآتي .

أولاً :

نقاشهم حول تعريف فن الكناية، واختلافهم البَيِّن حول علاقة الكناية بالحقيقة والمجاز، وهى مسألة غاية فى الأهمية، يتناولها البحث فى جانب منه،حيث يرى الباحث أن كل العراك القائم حول الكناية مردوده إلى هذه القضية .

ثانياً :

نتج عن هذا الاختلاف السابق مسارين، أحدهما يُدْخِل الكناية فى باب الحقيقة، والآخر فى باب المجاز، والثالث

١- نعيم علوية، أمير الكناية ومفاتيح القواعد، مجلة الفكر العربي، العدد ٤٦، لسنة ١٩٨٧م، السنة الثامنة، بيروت، لبنان، ص:١٦٢

أدخلها فى مساحة بين الحقيقة والمجاز والأخير أبعدها عن الحقيقة والمجاز [1]

ثالثاً :

أدى هذا الخلاف الذى ظل حتى فى الدراسات المعاصرة إلى اضطراب بَيِّن نحو غاية التعبير الكنائى فى بنية العمل الأدبي وغاية صاحبه منه، هذا التعبير الذى اعتمده وسيلة إبلاغية مؤثرة نحو المتلقي، الذى يعلم أن حواره مع النص الإبداعي يختلف عن حواره مع غيره من أصناف النصوص الأخرى، ولا شك أن هذا الاضطراب حول هذا الإشكال كان وراء ضياع جماليات هذا الأسلوب فى كثير من الدرس البلاغي وبُعْده عن غايته الإبلاغية

١- طالع هذا الخلاف:

- السيوطي، الإتقان علوم القرآن، دار مصر للطباعة، القاهرة، مصر، ١٩٩٦م، ص: ٣٥٥

- عبد الفتاح لاشين، البيان فى ضوء أساليب القرآن، دار المعارف، بمصر، ط ٣، ١٩٩٢ م ص: ٢٦٩ ، ٢٧٠

-عبد المطلب زيد، دراسات فى البيان العربي، دار الثقافة العربية القاهرة ، مصر، (د / ت)، ص: ١٣٥ وما بعدها

الحقَّة، فالمتلقي في "الأول"يتعامل مع لغة" تتجاوز المنطق الضيق إلى أفق بعيد وفضاء مفتوح، وعلى هذا فتفرد النص الأدبي راجع في إحدى جوانبه على الأقل إلى طريقة مميزة في استعمال اللغة [1] وهو إذن لا يُدرك إلا من خلال لغته[2]فهذا يعني أن في اللغة إمكانيات جمالية وفكرية موجودة بالقوة، تحتاج إلى حدس ملهم وإحساس صادق، لكي يخرج هذه الإمكانيات حيز الموجود بالقوة إلى حيز الموجود بالفعل [3]ويكون إذن دور المتلقي في تعامله في هذا البناء هو تتمته واكتماله، وبهذا يصدق"ما قيل عن الأدب من أنه نصف رؤية، يقوم المتلقي ببناء النصف الآخر، لتغدوا الرؤية كاملة، ولا يخفى على أحد ما في هذه العملية من متعة جمالية تكمن في َردِّ الانزياح إلى هنا"[4]، مرة

١- شكري محمد عياد، اللغة الإبداع ، انترناشيونال، برس، مصر ط١، ١٩٨٨، ص:٦٠

٢- رنييه ووليك ، مفاهيم نقدية ، ترجمة: محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد:١١٠، لسنة ١٩٨٧، ص:٤٣٦

٣- لؤي علي خليل، الطاقات الجمالية للجملة الشرطية، مجلة الموقف الأدبي، مجلة شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد(٢٧٦)، ١٩٩٤ م

٤- السابق، نفسه، ص: ١٨٠

أخرى على متلقي النص الإبداعي" معرفة العلاقات التى تشكل النسيج النصي وقراءة للبنيات اللغوية فى سياقه، ومعرفة النظام الذي يشكل فضاءه، أو فضاءاته، فلغة الخطاب الشعرى مشحونة، وهذا يعنى أنها لغة دلالات لا دلالة واحدة، ولغة احتمالات، لا لغة ثبات ويقين، ولغة توترات لا لغة الهدوء والسكينة، ولغة صراع وحركات متماوجة ومتواشجة، لا لغة اتجاه واحد[1] وإذا كان البحث ينبني حول شعرية "الفن الكنائى"، بتعبيره الثرى الدلالة والإيحاء، وبوصف النص الإبداعي بناءً من لغة تتصف بالشعرية، والتعبير الكنائى لبنةٌ فيه، فإن هذا الإشكال حول موقع "الكناية" بالنسبة للدال الأول(الحرفي) والدال الثاني(المجازي : المراد) يطفئ حرارية التعبير الشعرى، ويميت الإيحائية، ويعود باللغة إلى فطرتها الأولى، وهذا -مرة أخرى- ما لا يتوافق مع

١- خليل موسى، قراءات فى الشعر العربي الحديث والمعاصر، (مرجع سابق)، ص:١٨٠

فضاء النص الإبداعي الذى يأبى على اللغة الساكنة دخولَ هذا الفضاء .

هذا الاضطراب السابق- كما ذكرنا- مردُّه الاضطراب حول تأرجح الصورة الكنائية بين "الحقيقة والمجاز"،هذا الاضطراب الذى أدَّى إلى مقولة ظلت تتداول بين كثير من البلاغيين مفادها: [جواز إدارة المعنى الحقيقي فى التعبير الكنائى]، لذا فقد اتجه البحث فى مبحثه الأول بعرضٍ لأراء البلاغيين القدماء والمحدثين، ومدى اجتهادهم فى عرض هذا الإشكال، ثم ينتهي البحث بعرض رأيه، ووجهة نظره من خلال تعرضه لأُسِّ الإشكال الذى تعرض له البلاغيون؛ وهو مسألة (القرينة)، وقد ترتب على ذلك أنْ كان تحليلهم للصورة الكنائية كما وصفه باحث" تطغى عليه النزعة المنطقية التى أبعدت البلاغة العربية ردحا من الزمن عما تمتازبه من حسٍ جمالي أبعدها عن الأجواء الفكرية التى نشأت فيها"[1]

١- بشيّر كحيل، الكناية في البلاغة العربية، مكتبة الآداب، القاهرة، طـ ١، ٢٠٠٤ م، ص: ٥

على ما سبق فإن هذه الدراسة قامت، لتدلو بدلوها فى هذا الميدان، وتحاول فى محاولة منها دَرْسَ الفن الكنائى فى دائرته، التى رآها البحث، متأملا الفضاءات الدلاليةِ التى يحوم فيها التعبير الكنائى؛ بين "بعيد" و"قريب" و"غائم" و"متقاطع".

مبيِّناً جمال الأداء بهذا التعبير الفني فى كل فضاء من الفضاءات السابقة.

وهذا التناول من شأنه- مُقْترِحا- أن يُنْهي مقولة:جواز المعنى الحقيقي فى التعبير الكنائى، بوصفه موتا لِلُغةِ الفن التعبيري، ووصفه بالسَّذاجَة فى جانب منه، ووصف المبدع بنفس الصفة فى جانبه الآخر ثم انتهى البحث بدِراسة الفن الكنائى من خلال نصوص شعرية فى الشعر الحَديث والمعاصر، تطبيقاً لرؤية البحث وهدفه.

ولا شك أنه من الجميل، كما يقول جميل عبد الحميد " أن يتسع عقل الباحث المعاصر لفكر قديم وآخر حديث، لكنه جمال مشروط باقتران الاتساع بالاستيعاب، استيعاب الفكرة – قديمة كانت أم

حديثه – فى السياق الذى أنتجها، والأسس التى تنبني عليها، فهذه محاولة ومقترح عَلَّه يلقى القبول،

وعلى الله قصد السبيل ومنه التوفيق.